نقد ادورنو لفينومنولوجيا هوسرل [1]

ترجمة :أ .نورالدين علوش- المغرب

حاول الفيلسوف ادورنو من خلال مقاله ميتا نقد, تحديد فينومنولوجيا هوسرل بالاعتماد على نموذج ملموس؛ باعتبارها تشكل نظرية معرفية تروم التأسيس للحقيقة وفهمها.

فهدف ادورنو راديكالي بكل المقاييس: ما هو شكل ومحتوى الحقيقة الفلسفية في المجتمع الرأسمالي المعاصر؟ إذا كان واضحا لدى ادورنو, بان ما تراهن عليه الفلسفة هي الحقيقة؛ فهذه الأخيرة يجب أن تستعمل بالاعتماد على الظروف الحقيقية لمجتمعاتنا وأنظمة الفكر التي تعبر عنها. إذ نجد أن التيار الفكري الرئيسي يعبر عن فينومنولوجيا هوسرل ,لأنها تسمح لنا بمعرفة كل التيارات الفلسفية الأخرى السائدة في القرن العشرين.

بعبارة أخرى الموقف الذي أخده ادورنو من فنومنولجيا هوسرل هو نفس الموقف الذي أخده النيو كانطيين من كانط :بمعنى / كيف يمكن الخروج من نموذج فلسفي غير قادر على التجديد وفارغ معرفيا منطلقه التأسيسي؟ وكما خضعت فلسفة كانط للنقد ,فكذلك تحتاج فلسفة هوسرل إلى نقد النقد لتطوير الفلسفة في أفق تشكل معنى جديد للواقع.

يعتبر ادورنو فلسفة هوسرل نموذجا فكريا حقيقيا يمكنه الاعتماد عليه للتأسيس لنقد الجدل .فهذه العملية تسمح له بتوظيف مفهوم النقد المحايث الخاص بهوسرل في تحديد مفهوم الحقيقة من خلال اللاحقيقة. فالجدل باعتباره نقدا محايثا يفرض على الفنومنولوجيا تاكيد على لا حقيقتها التي تحول إلى حقيقة بالنقد وبالتالي إلى مفهوم.

---

[1] - *Adorno critique d'Husserl: dialectique, sociologie et phénomenologie par Saverio Ansaldi*
http://multitudes.samizdat.net/Adorno-critique-d-Husserl

تعرضت فينومنولوجيا هوسرل إلى نقد كبير ,حيث تعرف تناقضا كبيرا وليس كونية مجردة؛ وهكذا أصبحت الفينومنولوجيا هي المحرك لمفاهيم الجدل. فالمنطلقات الجدلية تسمح بالكشف عن الافتراضات المضمرة للفنومنولوجيا باعتبارها تناقضات والتأكيد على شمولية مبادئها. هذا يؤدي بنا إلى تحديد النقطة الأولى لأي تحليل لاحق: الفرق واضح بين المنهج الفنومنولوجي والمنهج الجدلي. وعلى أساس هذا الفرق المنهجي الفلسفي حدد ادورنو عناصر مشروعه النقدي.

إذن حسب ادورنو تعتبر فنومونولوجيا هوسرل أخر تمظهر قوي لبديهية معرفية قائمة على التحالف بين الفلسفة والرياضيات. فالفلسفة تمثل حالة النسق ككل باعتباره وحدة ,في حين أن الرياضيات تقدم له مبادئ اختزال الأشياء إلى اقانيم. فالكائن في تمظهراته يصبح التعبير عن وحدة تجد سبب وجودها في مبدأ النظام العددي والاختزالي. فالأعداد تسمح لكائن باختزال تعددية الكائن إلى وحدة للفكر. فهذه الطريقة التي أسسها أفلاطون نجدها عند كل من ديكارت وهوسرل أي نجدها في الفلسفات (التي لها أولوية المنهج)التي تزيل الفرق بين الموضوع والفكرة. على كل حال نجد فالفنومنولوجيا معنى جديد لأولوية المنهج يختلف عن الفلسفات السابقة؛ ذات صيرورة معرفية متجذرة في صيرورة اجتماعية ذات طابع هيمني.

التأسيس لأسبقية المنهج يتزامن مع تشكل النموذج الرأسمالي للقيادة والتحكم. بعبارة أخرى قدمت الفنومنولوجيا التبرير العلمي للهيمنة الرأسمالية حسب ادورنو.ففلسفة هوسرل لم تكن سوى ترجمة أمينة لعلاقات الملكية المجسدة للاغتراب ,لأنها تقيم حدودا بين الأفكار باعتبارها تمثل ملكيات حقيقية .فالعالم يتم بناؤه فنومنولوجيا من خلال مخطط تلاؤمي: الأفكار في خدمة المنهج مادامت تخدم الكينونة في ذاتها. لا تحدد الفلسفة الأولى الحقيقة انطلاقا من افتراضاتها المسبقة المضمرة دائما فهي مغلقة على نفسها ولا تنفتح إطلاقا. فالمبدأ الذي يحرك فلسفة هوسرل هو

الانسجام بأي ثمن حتى لا تتعرض الأفكار لأي اضطراب. بهذه الطريقة تصبح فلسفة هوسرل لا تتضمن أية معرفة بل أصبحت الذراع الفلسفي للهيمنة الرأسمالية. فالصيرورة الاجتماعية عوضت إلى حد ما بالفنومنولوجيا وجدت كما هي بدون أن يحدث أي تعديل.

فهدف ادورنو في مقاله ميتا نقد هو قلب المنطلقات الفومنولوجبة , من جهة لإبراز الدور الكبير الذي تلعبه في تأسيس العلوم الاجتماعية ومن جهة أخرى إثبات الطابع المركزي والمحدد للعلاقات الاجتماعية في التأسيس لأية ممارسة فلسفية مثل الجدل. وعلى مستور صعود الكائن الاجتماعي يتبن الفرق بين الجدل والفنومنولوجييا.: إذا كان الأول ينطلق من منطلقات مادية من علاقات الإنتاج, فان فلسفة هوسرل تستدمج في المنهج بصورة مجردة الشكل الصافي للتنظيم؛ غاضة الطرف عن المضمون الاجتماعي المقصي.

فانطلاقا من هذه المقدمات الراديكالية حاول ادورنو الكشف عن تناقضات فلسفة هوسرل من اجل الوصول إلى استكناه المنطق واستنطاقه ؛ لان "اذا كان تفسير العالم قد تطور فالآن يجب تغييره. ومادامت الفلسفة في استراحة, فان المفاهيم ستتجمد وتتحول إلى صور. فالآن وقت ليس وقت الفلسفة الأولى بل الأخيرة".

فالهدف الأساسي من نقد ادورنو لهوسرل هو إبراز العلاقة بين وضع المنطق ونظرية المعرفة والتأسيس للكائن الاجتماعي.ففلسفة هوسرل أخر محطة من محطات اختزال الفلسفة إلى علم ,الذي بدا مع كانط. فكل فلسفة تحتذي بالعلم , فهي خاضعة لتقسيم العمل ؛بعبارة أخرى تعمل الفلسفة على إعادة إنتاج المقولات الاجتماعية :لان العلم يعتبر المعرفة الفكرية هي مجرد تأملات مجردة.علاقات الإنتاج تقدم للعلم المواضيع ونماذج البحث' فهي تنشئ الحقول المعرفية وتضع الحدود بينها.

السوق هو من يقدم للعلم أدوات البحث والمعطيات وبالتالي تمثل العلوم مجموعة من الوظائف الثابتة والمفكرة للتنظيم الرأسمالي للعمل. في

هذا السياق لن تقوم الفلسفة بدورها الا من خلال ما هو مخطط لها من طرف التنظيم الاجتماعي.فكل من يخرج عن سيطرة السوق يعتبر غير علمي.إذن على عكس ما توخى هوسرل أصبحت فلسفته نموذج الخضوع للعلم.

فهي أصبحت تمثل العلم الحقيقي للفكر ومن خلال منهجيتها التي تمكننا من فهم العالم. فلسفته بحقيقتها الذاتية هي الضمان العلمي لتجربة منهجية. بعبارة أخرى حاملة رؤية حول كلية الموجود آخذة بعين الاعتبار معرفة عالمية لما هو حقيقي. فهذه الانطلاقة التأسيسية. تشبه إلى حد ما إقامة نموذج قوي ومتماسك للحقيقة ومن خلاله يتضح التالف القوي بين الفلسفة والعلم.

من خلال هذه الافتراضات المنهجية, حاول ادورنو توجيه سهام النقد للاطلاقية المنطقية لهوسرل, من اجل إبراز العلاقة الضيقة التي أقامها مع تشيؤ علاقات الإنتاج. أولا التصور الهوسرلي للمنطق يقوم على التراث المعرفي للعلوم باعتباره جهاز مراقبة. ثانيا اطلاقيته المنطقية هي انعكاس لفيتيشية العلوم ,بعبارة أخرى الفصل بين المنهج العلمي والتأسيس الاجتماعي للكائن. فمعطى الوعي الخاص الماقبلي للفينومنولوجيا فهو محددا مسبقا كهدف علمي, فهو لايحتاج إلى تبرير متعالي لأنه مضمون في موضوعيته العالمية. لهذا السبب حاول ادورنو إثبات ا ن مشكل الفنومنولوجيا لا يكمن في التحقق من إمكانية العالم بل كيف تحقق هذه الإمكانية. فما يهم هوسرل ليس الإشهاد على حقيقة العالم بل عليمة الحقيقة. فهذه الأخيرة هي ما يجب وصفها علميا. فمهمة الفلسفة هي استيعاب عبر الإدراك القصدي للكائن في ذاته منطقيا الذ ي لا يختزل والمؤسس على اطلاقيته. فالمنطق أصبح افتراضا انطولوجيا معزولا عن اية حركة قادرة على مده بقوة إنتاجية ؛ فطابعه الشكلي هي النتيجة لتشيؤه.بمعنى أخر أن المنطق يتعامل مع مواضيعه بغض النظر عن محتواه وشكله؛ معتبرا إياها هويات خاصة متكافئة وغير قابلة للتبادل حيث

نتمسك فقط بالشكل. فالاطلاقية المنطقية هي النتيجة للتشيؤ المعد أثناء اللحظة التأسيسية للموضوعية .

فمنطق فلسفة هوسرل لا يعتبر التقاطع الإنتاجي الذي حسب ادورنو هو أساس كل معرفة.فالحقيقة الفلسفية يتم تحديدها انطلاقا من الترابط المنهجي بين الذات والموضوع بين حركة الموضوع المفتوحة والفعل المؤسس للحكم. ولا يمكن بأي حال عزل لحظات مؤسسة للحقيقة لان الحقيقة هي حقل قوى والمنطق ليس هو الكائن في ذاته بل هو جدلية بين الذات والموضوع. فالحكم الفلسفي لا يفارق التكون والتوتر المحايث لأي ديناميكية حقيقية للحظات التأسيس.

من هنا يؤكد ادورنو بان التكوين بتضمنه المنطق لا يعني ان هناك نشاط بسيكولوجي.فهي سلوك اجتماعي. في المنطق نجد دائما الشروط الموضوعية للحقيقة الاجتماعية التي تتجاهلها الفينومنولوجيا بعدم إدماجها: هذا يعني أن الكائن الاجتماعي تم تحويله حالا إلى الحقيقة وموضوعيته تم تحويلها إلى موضوعية فكرية بإلغاء ثنائية الذات والموضوع تتخلى الفنومنولوجيا عن معرفة الحقيقة الاجتماعية, تصبح في الأخير عبارة عن نسخ شبيهة محرومة من القوة والتوتر التأملي. من هنا يتم النظر إلى العالم بنظرة لا مبالية وشكية بدون اعتبار للأصل الاجتماعي والصراعي لأفعاله المعرفية. وبالتالي فمحتويات الوعي يتم قبولها كما هي معطاة من طرف النظام القائم. لكن ادورنو يؤكد على أن الفكر يتطلب ذاتا وتصورا للذات :هذا يعني بان المعرفة يجب أن تعتمد دائما على اللحظة الإنتاجية والمحددة للذاتية التي لايمكن اختزالها من الأنا القصدي الفنومنولوجي.إلى الأنا الهوياتي المتعالي إلى نفسه ؛ لكن على العكس فهو حصيلة منتجة بين العرض التأملي والاختلاف غير قابل لاختزال للموضوع.

ما يجري في العالم ليس هناك من حياد ومباشرية , فالتفكير في الموضوع: يعني أولا تحديده ثم تحويله إلى صيغة أخرى.العمل المعرفي يغير من المعطيات الذي يؤسس توسط جدلي بين الموضوع المهيأ حالا وتصوره

للمفهوم،على عكس ما يجري في الفنومولوجيا حيث المنطق اخد دور نظرية المعرفة فان الجدل الذي يقترحه ادورنو يعتمد على الصيرورة التركيبية للتجربة ؛ فالبنية السكونية للمنطق للمنطق الهوسرلي يكشف عن نقص الذاتية .فالأنا الفنومنولوجية هي ذات غير منتجة وبسبب أنها معزولة عن التوسطات الحقيقية للكائن الاجتماعي وجمعنة علاقات الإنتاج. في حين أن الجدل يتناسب مع تناقضات الاجتماعية في أفق تغييرها ,أما الفنومنولوجيا فتقف أمامها بصورة حتمية ولا تكلف نفسها عناء التغيير.

فالعلاقات الاجتماعية لا تؤثر على المنهجية الفلسفية حسب هوسرل بل, بالعكس الفنومنولوجيا هي التي تثبت حالة الاستغلال الرأسمالي. فنقده المركزي لادورنو الموجه ضد هوسرل هو كالتالي: اتجاه هوسرل نحو تشيؤ لما هو معطي مرتبط بتدمير ..... في المجتمع البرجوازي المتقدم وتعويضه بمفاهيم جوفاء خادمة لاتجاهه. فقدان التجربة الحقيقية يتناسب مع القوة المتزايدة لإنسان الحديث. الفنومولوجيا تمثل الفنومنولجيا تمثل حسب ادورنو أخر جهد فارغ للفكر البرجوازي ,لتفادي هذه القوة المتزايدة نفسها.لكن هناك ما هو خطير:بديهية الهوية والمباشرية المطلقة يمكن أن تؤدي إلى هيمنة سياسية لايدولوجيا مطلقة.هناك خط مبهم بين الفنومنولوجيا والفاشية .لأنهما في النهاية تعبير واحد عن أزمة المجتمع الرأسمالي.

الطابع المنطقي والشكلي لفنومنولوجيا أخر محاولة للفكر المعاصر ,لتقديم صورة عن العالم متجانسة ومتداخلة لتنفيذ تصور عالمي للمعرفة. لكن هذا الأخير ليس غير قادر على إنتاج المعارف؛ لكن يقدم لاديولوجيات الهيمنة تبريرا فلسفيا. إذن ما هي الحجة المضادة للفنومنوجيا ,للخروج من هذا النموذج وتأسيس نموذج جديد يرتبط بالبراكسيس؟ كما ترون هذا ما طرحه ادورنو في مقاله ميتا نقد.الجواب يكمن في جدل مادي.وبعبارة أخرى الجدل الذي يحدد محتوى التجربة في التوسط الإنتاجي بين الذات والكائن اجتماعيا. فقط التأمل الذاتي الاجتماعي

للمعرفة يتناسب معها. "فنقد المجتمع هو نقد المعرفة والعكس صحيح ". وفي نفس الوقت "فمحتوى التجربة الشخصية لا يقام بمساعدة المنهج التعميم المقارن لكن بإذابة ما يمنع هذه التجربة من التخلي عن الموضع بدون تحفظ .فالمفتاح الأساسي للذات في المعرفة هي التجربة وليس الشكل. فما سماه كانط بالتأليف فهو ليس كذلك. فالمعرفة هي تهديم لتراثها القديم وتدمير للعنف الممارس على الموضوع. فالذات تمزق الحجاب الذي يطوق الموضوع من خلال معرفته. فالذات لن تتمكن من فعل هذا مادامت تخلت بطواعية وبدون إكراه عن تجربتها الشخصية "فأمام العمل الذي تقوم به الذات في وجوده الاجتماعي يمكن تقديم معرفة فلسفية منتجة. فالهدف ليس الحالة السكونية لنظرية المعرفة بل وضع الكائن في حركة جدلية لتأسيس محايث للعلاقات الاجتماعية. فهذا الفعل مقدور عليه من طرف الفعل المعرفي للذات الجدلية التي تنفتح على مختلف تاليفاتها وتطوراتها لتشكيل حقل قوى ,لا يستهدف الهوية المجردة لثنائية الذات الموضوع؛ لكن بالأحرى الإبداع الدائم للمفاهيم ولتقاطع للامادي للخطابات والإنتاج الاجتماعي للمعرفة.

إذا أمكن لنا تصور دولة خارج التصالح , لن نتمكن من رؤية لا الوحدة الاختلافية للذات والموضوع ولا الحجة المضادة الراديكالية: سنرى فقط لعبة الاختلافات.إذن فقط مفهوم التواصل باعتباره هدفا يمكن أن يجد مكانه.

فالعلاقة بين الذات والموضوع ,تأخد مكانها الحقيقي حتى ابستمولوجيا في سلام حقيقي دائم بين الأفراد فيما بينهم وبين الآخرين أيضا. السلام هو حالة الاختلاف بدون هيمنة , حيث يمكن للاختلاف أن يعبر عن نفسه.

المراجع:

[1] Le texte de Herder, Eine Metakritik zur Kritik der reinen Vernunft parait en janvier 1799, vingt ans après la publication de la. Critique de la raison pure de Kant.

[2] Pour les concepts de « modèle » et de « dialectique », voir directement la Dialectique Négative, Paris, Payot, 1992.

[3] Il serait intéressant s ce propos d'étudier le rapport existant entre cette interprétation d'Adorno et la reconstruction /déconstruction de la métaphysique opérée par Heidegger.

[4] Adorno, Zur Metakritik der Erkenntnistheorie, Stuttgart, 1956, p. 34.

[5] Husserl, « La crise de l'humanité européenne et la philosophie », dans La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, Paris, Gallimard, 1989, p. 381-382.

[6] II est évident que cette conception adornienne de la vérité doit être lue en relation étroite avec l'expérience spéculative hégélienne, à laquelle d'ailleurs Adorno se réfère explicitement. Sur le rapport Adorno-Hegel, voir Adorno, Trois études sur Hegel, Paris, Payot, 1979, en particulier p. 66-99.

[7] M. Jay, L'imagination dialectique. L'École de Francfort 1923-1950, Paris, Payot, 1989, p. 91.

[8] Celle-ci est d'ailleurs la critique qu'Adorno adressera, avec une remarquable vis polemica, contre Heidegger et son ontologie existentielle. Cf. Adorno, Le jargon de l'authenticité, Paris, Payot, 1989.

[9] Adorno, « Sujet et Objet », dans Modèles critiques, Paris, Payot, 1984, p. 267.